دور الموقع والموضع في تاريخ اليمن

(مقومات النجاح وأسباب الفشل)

أ.د. محمود علي محسن السالمي*

المستخلص:

يستعرض البحث الدور المؤثر لموقع وموضع اليمن في مسار تاريخه العام، فموقعه الجغرافي المميز منحة قيمة إستراتيجية عظيمة منذ فجر التاريخ البشري، كما أن ظروفه الطبيعية الداخلية، التي اتسمت بقدر كبير من التنوع في التضاريس والمناخ جعلته المكان الأكثر أهمية وشأن في شبه الجزيرة العربية كلها، والأكثر نشاطاً بشرياً وحضارياً منذ أقدم العصور. كما أن موقع اليمن وموضعه كان لهما أثرهما الكبير في تكوين شخصيته الحضارية، وتشكيل بنيته الاجتماعية المتعددة والمعقدة، فإلى جانب الأهمية التي مثلها موقعه في طريق التجارة الدولية، وفي التفاعل بين الحضارات الإقليمية والدولية، فقد كانت ثروته وإمكاناته الداخلية التي وفرها الموضع السند الأساسي الذي جعله يستفيد ثقافيًا وحضاريا من هذا الموقع. كما يوضح البحث بإن تلك الأهمية التي مثلها موقع اليمن وموضعه لم تكن دائمًا مصدر خير ونعمة له، إذ تعرض بسببها في عصوره المختلة لأطماع وغزوات العديد من الدول الإقليمية والعالمية، كما مثلت بيئته التضاريسية الصعبة عامل معيق ليس فقط للدول الغازية، بل ولدوله المحلية التي حاولت أن تمد سلطتها على كل أراضيه.

Abstract:

The research reviews the influential role and position of Yemen in the course of the history of the year, make it occupy a great strategic position since the dawn of human history. In addition, its internal natural conditions, marked by a great diversity of terrain, climate and climate diversity,

* أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر المشارك، كلية الآداب/ جامعة عدن. مدير مركز عدن للدراسات والبحوث التاريخية والنشر.

made it important and valuable in the Arabian Peninsula, and the most natural activity and civilization since ancient times. It can be said: The location and location of Yemen had a great impact on its civilizational identity, and on its multiple and complex social structure, in addition to the importance that its position represented in the international trade route and interaction with neighboring civilizations. Make him benefit culturally and culturally from this location, to be just a stop on the international trade route. It shows the airlines outline of the flying islands.

مقدمة:

لا شك في أن تاريخ أية دولة أو أمة أو إقليم يتأثر بدرجة كبيرة بخصوصية المكان الجغرافي لتلك الدولة أو لتلك الأمة، فتاريخ الدول أو الأمم التي تمتعت مواقعها بقدر كبير من الأهمية، كان وما زال حافل بالأحداث، ومختلف عن تاريخ غيرها من الدول التي لم تحظ مواقعها بمثل تلك الأهمية. كما أن الدول أو الأمم التي وفرت طبيعتها الداخلية "الموضع" إمكانات وظروف مناسبة للنشاط البشري، لها تاريخ مميز عن غيرها من الدول والأمم التي لم يوفر موضعها مثل تلك الظروف والإمكانات. وإذا كان من البديهي على باحث التاريخ أن يتعرف على "الموقع" و"الموضع" عند دراسته لتاريخ أي دولة أو أمة، بوصفهما من العوامل الأساسية التي تتدخل في إنتاج أحداثه التاريخية، فإنه من البديهي أيضًا أن يدرك الباحث أن الموقع والموضع ثوابت بذاتهما، لا تتغيرًا وإن تغيرت وتطورت مظاهر النشاط البشري من مرحلة إلى أخرى، فعلى الرغم من التقدم الكبير الذي أحدثه الإنسان في وسائل تعامله مع بيئته، إلا أن ذلك لا يعني في أي حال من الأحوال قدرته على التحكم بظروفها الطبيعية، فالبحر سيظل بحرًا والسهل سهلًا والجبل جبلًا إلى أن يرث الله الأرض.

دور الموقع:

لليمن موقع جغرافي مميز، جعله يحتل مكانة استراتيجية عظيمة منذ فجر التاريخ، فهو يقع في الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة العربية، عند نقطةٍ تقترب فيها القارة الآسيوية من القارة الأفريقية، وهي مضيق باب المندب، الذي لا يزيد عرضه عن ٢٠ميلًا[١]. فعلاوة على عن أن ذلك المضيق قد جعل من اليمن حلقة اتصالٍ بين القارتين منذ القدم، فقد مكنه من الإشراف على حركة الملاحة البحرية التي تمر عبر البحر الأحمر، وقد تعززت تلك الإمكانية بشكل أكبر من خلال جزيرة ميون (بريم) التي تقع في وسط ذلك المضيق وتقسمه إلى قناتين: إحداها بينها وبين اليمن واتساعها ميلان فقط، والأخرى تقع بجهة الساحل الأفريقي اتساعها (١٣ميلًا)[٢].

وفضلاً عن ذلك، فقد تضاعفت أهمية موقع اليمن، بإطلال سواحله، من جهتين كاملتين، على بحرين كبيرين ومهمين، هما: البحر الأحمر من الناحية الغربية، والبحر العربي من الناحية الجنوبية. وكما هو معروف فقد مثل هذان البحران، أهم حلقات الاتصال بين شرق العالم وغربه، منذ أقدم العصور، وتعاظم دورهما بدرجة أكبر في العصور التاريخية الحديثة، التي شهدت فيها حركة ذلك الاتصال نشاطًا مكثفًا، وبالأخص بعد افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩م، التي ربطت هذين البحرين بالبحر الأبيض، وجعلت من طريق الملاحة عبرهما ليس أقصر طريق تربط الشرق بالغرب فحسب بل وأسهلها.

وكان الطريق عبر البحرين الأحمر والعربي، قد حمل منذ أقدم العصور، إلى العالم القديم أول مبادئ الاتصال التجاري والفكري، وخصوصًا بين الحضارات الثلاث التي كانت تحيط بالجزيرة العربية، وهي: حضارة "بلاد ما بين النهرين" وحضارة "مصر" وحضارة "بلاد السند"، وكان الطريق البحري بوجه عام، هو الطريق المفضل منذ أن أتقن الإنسان فن الملاحة، إذ كان أكثر أمنًا وأقل نفقة، ولذلك فقد مثل طريق البخور الذي كان يمر عبر ظفار، وقنا، وعدن، ومن ثم غزة أشهر الطريق القديمة التي ربطت الشرق بالغرب[٣]،

---

[١] **محمود علي محسن السالمي: محاولة توحيد اليمن بعد خروج العثمانيين الأول، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، دمشق، ط١، ٢٠٠٠، ص ٧.**

[٢] **متولي، محمود أبو العلاء: جغرافية شبه الجزيرة العربية، ج٣ (الخاص بشمال اليمن) القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، الطبعة الثالثة، بدون تاريخ، ص٢٢.**

[٣] **كلاوس شيبمان: تاريخ الممالك القديمة في جنوب الجزيرة العربية، ترجمة د. فاروق إسماعيل، مركز البحوث والدراسات اليمنية، صنعاء، ٢٠٠٢م. ص ١٣.**

وعرف طريق البخور الذي كان يمر عبر عدة مراكز ونقاط تجارية في اليمن، والذي سار عليه التجار الرومان واليونان والمصريون والفينيقيون وغيرهم من تجار الحضارات المزدهرة في ذلك الوقت، بالطريق المقدس[١]، وأحيط بهالة من الروحانية والعظمة، وقد حاول الرومان بعد سيطرتهم على مصر، السيطرة على ذلك الطريق التجاري الشهير، الذي كان يهيمن عليه اليمنيون، فأرسلوا لذلك الغرض حملة قوية من مصر إلى اليمن في سنة ٢٤ ق. م، لكنها باءت بالفشل[٢].

وأهمية اليمن التجارية لم تقتصر فقط على أهمية موقعه في الملاحة البحرية، بل وفي تلك الأهمية التي مثلها في طريق التجارة البرية، فموقعه المتوسط بين الشرق والغرب، جعل سكانه يقومون بدور الوسيط في التجارة القديمة بين بلاد الهند والصين من ناحية، وبلاد البحر المتوسط وأروبا من ناحية أخرى، ولعل طريق قوافل التوابل الذي كان يبدأ من جنوب بلاد اليمن، ويستمر شمالًا إلى سواحل البحر المتوسط في الشام؛ علامة بارزة في تلك الأهمية[٣].

وفي كل الأحوال، لا يمكننا حصر الأثر التاريخي الذي ترتب على أهمية موقع اليمن وموضعه، فقط بحالة التطور الحضاري والرخاء التي أتاحتها لسكانه، والتي جعلته يؤدي خلال عصوره المختلفة دورًا مرموقًا في تاريخ جهات الشرق الأوسط، بل وفيما جلبته لهم من تحديات ومتاعب. فبسبب تلك الأهمية تعرض اليمن في أغلب حقبه الزمنية لأطماع واعتداءات الكيانات الدولية الكبرى، أكان ذلك في عهد الإمبراطوريات العالمية القديمة: "الرومانية" و"الفارسية" و"الحبشية"، أو في عهود الإمبراطوريات الحديثة مثل: "العثمانية" و"البرتغالية" و"البريطانية"، وتأثر اليمن بصورة كبيرة عندما تمكنت بعض تلك الدول من إخضاعه لحكمها المباشر. ففضلًا عما كانت تخلفه مقاومة المحتلين من تضحيات، ودمار، وإنهاك لاقتصاده، فقد كانت

---

[١] ديفيد ليدجر: الرمال المتحركة (البريطانيون في الجنوب العربي) ترجمة: د. منال حلبوب، صنعاء، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م، ص ٢١.

[٢] سيد مصطفى سالم (د): الفتح العثماني الأول، القاهرة، معهد الدراسات والبحوث العربية، ط٣، ١٩٨٤م، ص١٧.

[٣] محمد محمد سطحيه (د): اليمن شماله وجنوبه، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٢، ص٨.

سياسات السلطات المحتلة تلقي بظلها على أوضاعه وتوازناته الداخلية، حتى في حالة عدم مقاومتها. وبصفة عامة فنتيجة السيطرة الأجنبية كانت لا تقتصر على ذلك التبدل الذي كانت تحدثه في خارطته السياسية الداخلية فحسب، بل وفيما كانت تخلفه من أثر ثقافي وفكري وأخلاقي، كما أن مزاحمة التجار الأجانب للتجار المحليين في تجارة البخور والتوابل وغيرها، والصلات التي سهلتها مع أجناس متعددة الأعراق والديانات قد عمل على انتشارات العديد من المعتقدات الجديدة[١] مثل اليهودية والمسيحة التي تسببت بحالة من عدم الاستقرار الديني.

ومن العوامل الأخرى التي أثرت على تاريخ اليمن، ولها علاقة بموقعه الجغرافي، هي تلك الهجرات البشرية الكبيرة التي كانت تغادره من زمن لآخر، فالزيادة المطردة في سكانه، في ظل موقعه المتوسط، وإشرافه على الممرات المائية التي كانت تربط الحضارات القديمة في مصر والعراق والهند، جعلته يشهد نزوحًا مستمرًا، منذ فجر التاريخ، ولعل من بين أهم تلك الهجرات، تلك التي تمت إلى بلاد الحبشة وشرق أفريقيا ومصر([٢])، وشمال الجزيرة العربية في العهود القديمة، وتلك التي تمت عند الفتوحات الإسلامية، وكذلك تلك الهجرات التي اتجهت بعد ذلك إلى شرق أفريقيا، وجنوب شرق آسيا، والتي من أهم نتائجها نشر الإسلام في تلك الجهات.

ومن المهم الإشارة إلى أنه على الرغم من الصلات التي كانت تربط حضارة اليمن في عهد دوله القديمة، (سبأ، ومعين، وحضرموت، وقتبان، وأوسان، وحمير) بالعديد من الحضارات الإقليمية المجاورة[٣]، إلا أن تاريخه في أثناء ذلك العهد تميز بطابعه الشديد الخصوصية، وظل على ذلك الحال حتى خضوعه، في نهاية ذلك العهد، لنفوذ دولتين أجنبيتين متتاليتين هما: الأحباش والفرس، فكانت تدخلاتهما في شؤونه الداخلية قد فعلت فعلهما في خلخلة التوزيع السياسي لقواه الداخلية، وفرضت عليه واقعًا جديدًا، أضعف معه تلك الخصوصية التي ظلت تميز حضارته، والأكثر من ذلك فقد أدخلته في حالة من الضعف والتفكك.

---

[1] R.J. Gavin: Aden under British rule, 1939 -1967, London, 1975, p26.

[٢] محمد محمد سطحيه: المرجع السابق، ص٢٣.

[٣] د. محمد عبد القادر بافقيه: تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥، ص١١.

وبحكم موقع اليمن القريب من الحجاز، فقد ارتبط تاريخه منذ دخوله الإسلام بتاريخ الدولة الإسلامية المركزية، وأصبح جزءًا مهمًا وفاعلًا في معظم الأحداث والتطورات التي شهدها هذا الكيان السياسي الكبير، وأثر وتأثر بتلك التيارات الدينية والسياسية التي ظهرت في أرجاء مختلفة من العالم الإسلامي. وكان اليمن قد قُسم، في أثناء ارتباطه بدولة الخلافة الإسلامية، إلى ثلاثة أقاليم إدارية هي: (صنعاء، الجند، حضرموت)[١]، غير أن ضعف الدول الإسلامية المركزية، في ظل بعد اليمن عن عواصمها الجديدة في الشام أو في العراق، وفي ظل ظروفه الطبيعية والاجتماعية المعقدة؛ كان يقود إلى فشل سلطة تلك الدول على أقاليمه، وساعدت إلى حد كبير في قيام العديد من الدويلات الداخلية، التي توالى ظهورها منذ مستهل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وفضلًا عن ذلك، فقد وجد الفارون من قمع الدول الإسلامية المركزية، في نواحي اليمن الوعرة والبعيدة، فرصة كبيرة ليس للإفلات من الملاحقة فحسب، بل ولنشر أفكارهم ومذاهبهم الدينية في اليمن، وقد نجح بعضهم في إقامة دول خاصة بمعتقداتهم، لعل أهمها: "القرامطة" و"الإسماعيلية" و"الزيدية".

وتأثر تاريخ اليمن، بعد تفكك دولة الخلافة الإسلامية، بما كان يحدث في شمال الوطن العربي سواء في العراق أو في الشام أو في مصر، إذ عملت الدول الإسلامية التي ظهرت هناك على مد تأثيرها ونفوذها إلى اليمن، الذي ضاعف قربه من منطقة الحجاز، التي احتضنت أهم مقدسات المسلمين، من أهمية موقعه. فالدولة الفاطمية في مصر حرصت على تنشط الطريق الملاحي عبر البحر الأحمر[٢]، وحاولت تأكيد أهميتها بأمنه من خلال تعزيز علاقتها بالدولة الصليحية[٣]، التي ظهرت في اليمن في النصف الأول من القرن الثاني عشر الميلادي. كما كان استيلاء صلاح الدين الأيوبي على اليمن في النصف

---

[١] تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني: بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازي، دار الكلمة، صنعاء، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، ص ١٩. حسين العرشي: بلوغ المرام في شرح مسك الختام، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ، ص ١٠.

[٢] عبد العزيز سالم (د): البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣م، ص ٨١.

[٣] حسين بن فيض الله الهمداني: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، منشورات المدينة، صنعاء، ط٣، ١٩٨٦م، ص١٠.

الثاني من ذلك القرن جزءًا مهمًّا من خطته لتدعيم سيطرته على أقاليم البحر الأحمر المختلفة[١].

وتأثر تاريخ اليمن بعد ذلك، وبسبب أهمية موقعه البحري، بالصراع الدولي الذي شهدته الحقبة الاستعمارية، على الطرق الملاحية المهمة في العالم. ففي خضم ذلك النزاع حاولت عدة دول أوربية ليس السيطرة على مياه البحار المحيطة به فحسب؛ بل والتدخل في شؤونه والسيطرة على تجارة موانيه. ولم تتردد بعضها في استعمال القوة لتحقيق تلك الغاية، فقوات الإمبراطورية البرتغالية، التي كانت تجوب البحار المحيطة باليمن، في مستهل القرن السادس عشر الميلادي، حاولت أكثر من مرة فرض سيطرتها على عدد من مناطقه المهمة. لكنها في الوقت الذي نجحت فيه في السيطرة على بعضها لمدة من الزمن، مثل احتلالها لجزيرة سقطرى في عام ١٥٠٧م، فقد فشلت فيه في السيطرة على مناطق أخرى، ومنها محاولتها احتلال ميناء عدن في ١٥١٣م[٢].

ولم تتوقف المخاطر التي تعرض لها اليمن من جهة البحر عند ذلك الحد، ففي غضون ذلك التنافس الدولي المحموم على التحكم بطرق الملاحة البحرية، توجهت إلى بحاره، فضلًا عن القوات البرتغالية، العديد من جيوش الدول الطامعة الأخرى، وحاولت كل منها تعزيز موقفها في ذلك النزاع، بفرض نفوذها على مياهه الإقليمية التي تشرف على أهم الطرق التجارة البحرية في العالم. ولا شك في أن اليمن الذي لم يكن لدية في ذلك الوقت من القوة التي يستطيع بها الدفاع عن سيادته، كان الخاسر الأكبر من وراء ذلك النزاع، ففضلًا عما كانت تخلفه أعمال القرصنة والمواجهات البحرية من أثر سلبي على حركة تجارة موانيه؛ كانت أراضيه الداخلية عرضة لغزو عدد من جيوش تلك الدول المتنافسة. فالحملة التي وجهتها دولة المماليك في مصر للقضاء على النفوذ البرتغالي في المحيط الهندي، عوضت فشلها في المواجهة التي خاضتها مع البرتغاليين في ديو في سنة ١٥٠٩م[٣]، باحتلالها لجهات اليمن الغربية، التي

---

[١]سيد مصطفى سالم (د): الفتح العثماني الأول لليمن، ص٣٠.

[٢] أريك ماكرو: اليمن والغرب ترجمة د. حسين العمري، دمشق، دار الفكر، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م، ص٢٠. قصي كامل شبيب: أهمية مضيق باب المندب في التاريخ الحديث والمعاصر صنعاء مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط١، ١٩٩٤م، ص ٤٥.

[٣]فاروق عثمان أباظة (د): عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر (١٨٣٩-١٩١٨) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م، ص٤٠.

تشرف على البحر الأحمر. كما أن السلطنة العثمانية التي فرضت سيطرتها على شمال الوطن العربي، وقضت على دولة المماليك هناك، وجهت حملة عسكرية إلى اليمن لكي تبعد البرتغاليين عن البحر الأحمر، وتتحكم وحدها بحركته الملاحة، وقد تمكنت تلك الحملة من احتلال عدن وزبيد في سنة ١٥٣٨م، ومن ثم التوغل باتجاه مناطق الداخل حتى وصلت في عام ١٥٤٧م مدينة صنعاء[١].

ومع أن اليمن استطاع بعد أكثر من قرن التحرر من السيطرة العثمانية، إلاّ أن أهمية موقعه، في ظل ظروف التفكك والتناحر الداخلي، التي عاشها في القرن الثامن عشر الميلادي، جعلته هدفًا للمطامع التوسعية للدول الاستعمارية من جديد، فحاولت كل من: إنجلترا، وإيطاليا، والنمسا والمجر، وهولندا، مد خراطيمها إلى ذلك القطر ذي الأهمية الاستراتيجية[٢]. كما أن دولة محمد علي في مصر، التي كان لها مشروع سياسي طموح، سعت جاهدة لإحكام سيطرتها على البحر الأحمر، وانتهزت فرصة التهديد الذي شكلته الدعوة الوهابية على نفوذ السلطنة العثمانية في الجزيرة العربية، بعد أن سيطرت على أجزاء واسعة منها[٣]، لتحقيق تلك الغاية، فأرسلت إليها بعد إذن من السلطان العثماني، حملة عسكرية في سنة ١٨١١م[٤]، وأخرى في سنة ١٨١٦م، كان الغرض منهما ليس إخماد تلك الدعوة فحسب، بل والسيطرة على نواحي اليمن الغربية التي تتحكم بالمدخل الجنوبي للبحر الأحمر، وقد نجحت في تحقيق هدفها، وظلت مسيطرة على تلك النواحي إلى أن أجبرتها الضغوط الغربية في سنة ١٨٤٠م، على مغادرة الجزيرة العربية بأكملها[٥].

---

[١] أحمد فخري: اليمن ماضيها وحاضرها المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٨م، ص٢٠٣. أحمد شرف الدين: اليمن عبر التاريخ مصر، المطبعة المحمدية، ط٢، ١٩٦٤م، ص٢٦١.

[٢] فيتالي ناؤومكين: الجبهة القومية في الكفاح من أجل استقلال اليمن الجنوبية، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٤م، ص ٨.

[٣] أيوب صبري باشا: مرآة جزيرة العرب، ترجمة وتعليق د. أحمد فؤاد متولي و د. الصفصاني أحمد المرسي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م، ص ١١٦.

[٤] جاد طه (د): سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، بدون تاريخ، ص٥١.

[٥] لوتسكي: تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة د. عفيفة البستاني، دار التقدم، موسكو، بدون تاريخ، ص١٧٦.

وكان لدى بريطانيا ما يكفيها من الأسباب التي دفعتها لاحتلال عدن في يناير ١٨٣٩م، ففضلاً عن حاجتها لها كمحطة تموين[١]، وخوفها من أن تقع بيد محمد علي باشا الذي كانت قواته تتمدد في سواحل جنوب غرب الجزيرة العربية ويتمكن من السيطرة على مدخل البحر الأحمر، وكذلك دافعها لكسر التفوق الأمريكي في تجارة البن مع اليمن[٢]، فقد كانت أهميتها، وفق ما ذكره حاكم الهند البريطاني في خطابه إلى إدارة شركة الهند الشرقية، في ٢٧ فبراير ١٨٣٨م، لا تقدر بثمن، فهي من وجهة نظره: تصلح كمحزن للفحم، طول فصول السنة، وملتقى للسفن السالكة طريق البحر الأحمر، وقاعدة عسكرية قوية، يمكن بواسطتها حماية التجارة في الخليج العربي، والبحر الأحمر[٣].

ولا يمكن عزل التطورات السياسية الخطيرة التي شهدها اليمن في القرن التاسع عشر الميلادي، عن تلك الأهمية التي ميزت موقعه في طريق التجارة العالمي، والتي تضاعفت بشكل أكبر بعد افتتاح قناة السويس في سنة١٨٦٩م[٤]. فالسلطنة العثمانية التي خلفت قوات محمد علي في السيطرة على ساحل تهامة في غرب اليمن سعت بعد افتتاح القناة إلى توسيع نفوذها في مناطقه الداخلية، وكانت حالة الضعف والتناحر التي كانت تمر بها سلطة الأئمة هناك[٥]، قد شجعتها على توجيه حملة عسكرية إلى صنعاء في سنة ١٨٧٢م[٦]، وتمكنت تلك الحملة من السيطرة عليها وعلى المناطق المجاورة لها بكل سهولة، ثم اتجهت إلى مناطق "تعز" و"إب" (اليمن الأسفل) التي أذعنت هي الأخرى من دون أي مقاومة تذكر[٧]، وشجعها ذلك على محاولة مد سلطتها على مناطق الجنوب بما فيها عدن[٨]. لكن في حين تمكنت السلطنة العثمانية من فرض

---

[١] هارولد أنجرامس: اليمن، الأئمة والحكام والثورات، ترجمة: نجيب سعيد باوزير، مراجعة: عبد الكريم الحنكي، مركز البحوث جامعة عدن، ط١ ، ٢٠٠٧، ص٣.

[2] Z. H. Kour: The history of Aden, 1839-72, London, 1981, p9.

[٣] سلطان ناجي: التاريخ العسكري لليمن، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م، ص ١٢.

[4] Donald Foster: Lands Cape with Arabs, Travels in Aden and South Arabia, Clifton Books, First Published, London, 1960, p. 28

[٥] فاروق عثمان أباظة (د): الحكم العثماني في اليمن (١٨٧٢-١٩١٨) الهيئة العامة المصرية للكتاب، ١٩٨٦م، ص٧٢.

[٦] سيد مصطفى سالم (د): البحر الأحمر والجزر اليمنية، ص ٤٨.

[٧] اليمن في العهد العثماني، مجموعة وثائق تركية عن اليمن، أعدها وصنفها وترجمها إلى الغربية فريق برئاسة د. يوسف صاريناي، إسطنبول، ٢٠٠٨م، ص٣٣٣.

[8] Sir Pernard Reilly: Aden and the Yemen, Colonial office, London, 1960 P. 16

سلطتها بشكل سريع على مناطق شمال اليمن، فقد عانت صعوبات في الوصول إلى السواحل الجنوبية، إذ حالت بريطانيا التي سبق لها احتلال عدن في ١٨٣٩م، دون وصول النفوذ العثماني إلى المناطق اليمن الجنوبية، لاسيما القريبة من عدن، التي أصبح لزعمائها معاهدات وعلاقات متنامية مع البريطانيين في عدن[١]، على الرغم من المحاولات العديدة التي بذلها العثمانيون لتحقيق مثل ذلك التمدد.

وعلى أية حال، فعندما تأكد للعثمانيين صعوبة التوغل في مناطق الجنوب، التي كانوا يطلقون عليها اسم "النواحي التسع"[٢]، اضطروا في نهاية المطاف ليس إلى الاعتراف بالنفوذ البريطاني فيها فحسب، بل وإلى الاتفاق معهم قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى على رسم الحدود التي تفصل بين مناطق نفوذهما في اليمن.

غير أن ذلك الاتفاق لم يضع حدًا للصراع التركي البريطاني في اليمن، فإعلان تركيا في نهاية أكتوبر ١٩١٤م دخول الحرب إلى جانب دول المحور[٣]، جعلها تصطدم مع بريطانيا في جنوب اليمن، التي كانت تنتمي للمحور الآخر في تلك الحرب. وعمومًا فقد دارت بين الطرفين مواجهات عديدة في البر وفي البحر، وحاول كل منهما توظيف كل الإمكانات البشرية والاقتصادية في الجهات اليمنية التي يسيطر عليها لمصلحة مجهوده الحربي، والسيطرة على أكبر قدر من الأراضي التي تتبع الطرف الآخر، وعقد تحالفات مع الزعامات الداخلية ومع خصوم الطرف الآخر لضعضعة سلطته. وعموماً فقد وجد السكان أنفسهم، وخصوصًا في المناطق التي شهدت المواجهات، مجبرين على دفع ثمن كبير لحرب ليس لهم فيها ناقة ولا جمل.

وعلى الرغم من أن الحرب العالمية الأولى التي انتهت بهزيمة الدول التي تحالفت معها تركيا، قد وضعت نهاية للصراع البريطاني التركي في اليمن، إلا

---

(1) A. R. Yaccob: Ph.D. thesis " Anglo-Ottoman rivalries in Southwest Arabia prior to and during the first world war: 1906-1919 " University of London, 1995, p 104.

(2) R. W. Canning Large: Ph.D. thesis "The Extension of British Influence In and around the Gulf of Aden 186S-190S", University of London, 1974, p 9.27

(٣) جون بولدري: العمليات البحرية البريطانية ضد اليمن إبان الحكم التركي ١٩١٤- ١٩١٩م، ترجمة د. سيد مصطفى سالم، المطبعة الفنية، القاهرة، ١٩٨٢م، ص ٤٤.

أنها لم تضع حدًا للصراع الدولي المستمر على التحكم بموقعه الاستراتيجي، والذي تضاعفت أهميته مع تلك الاكتشافات النفطية الكبيرة التي شهدتها الجزيرة العربية، والتي جعلتها تصبح أهم مصادر الطاقة في العالم، وعلى الرغم من الاكتشافات اللاحقة للنفط والغاز في أماكن أخرى من العالم، إلا أنه ليس ثمة غنى ولا بديل للدول الغربية عن مخزونات النفط الهائلة في منطقة الخليج العربي، التي تشكل ثلثي احتياطي العالم[١]. ولا شك في أن خوف بريطانيا في ذلك الحين من وقوع الكثير من النفط في أيدي القوى المعادية للغرب، التي كان يدعمها الاتحاد السوفيتي، كان يمثل دافعًا واضحًا ومفهومًا لها لتعمل على تأمين وجودها في عدن ومساعدة السلطنات المرتبطة بها في السواحل الجنوبية والغربية من الجزيرة العربية وحمايتها. فدفع ذلك بها إلى مزيد من التغلغل في جنوب اليمن لتدعيم نفوذها فيه وفي باقي جهات الجزيرة العربية، وأصبحت مدينة عدن منذ مارس ١٩٦١م أهم قاعدة لها في الشرق الأوسط[٢]، كما دفع أهمية موقع اليمن في ذلك الوقت بالدول الأخرى إلى مد نفوذها إلى شماله، ومن بينها السعودية التي دخلت في علاقة حماية مع إمارة الإدريسي في عسير، والتي تمكنت بعدها من ضمها إليها، كما سعت كل من إيطاليا والاتحاد السوفيتي[٣]، ومصر في عهد عبد الناصر، إلى ربط دولة الأئمة في اليمن بنفوذ كل منها. ومع أن المناخ التحرري الذي شهده العالم عقب الحرب العالمية الثانية، قد أفضى بشكل أو بآخر إلى حصول معظم الدول المستعمرة على استغلالها، ومنها جنوب اليمن الذي تخلص من الوجود البريطاني في نوفمبر ١٩٦٧م، إلا أن ذلك لم يمنح اليمن، الذي أصبح يخضع لدولتين متنافستين، المجال للإفلات من نفوذ الخارج، أو الابتعاد عن دائرة الحرب العالمية الباردة، التي أقحمته فيها الدول الكبرى المتنافسة على موقعه.

وهكذا فإنه في الوقت الذي سمح فيه موقع اليمن المميز لسكانه بالاستفادة من الإمكانات التي أتاحتها أهميته، والتي ساعدت على ظهور العديد من

---

[١] جمال محمود حجر (د): القوى الكبرى والشرق الأوسط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ١٩٨٩م، ص ١٣٠.

[٢] فالكوفا: السياسية الاستعمارية في جنوب اليمن، ترجمة عمر الجاوي، مطابع مؤسسة ١٤ أكتوبر، عدن، ١٩٧٨م، ص ٨.

[٣] مجموعة من المؤلفين الروس: تاريخ الأقطار العربية الجزء الأول، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٥م، ص ٤٦١، ٤٦٨.

تجمعاته الحضرية ودوله المهمة، فقد فرض عليهم في أوقات كثيرة دفع ثمن باهظ لتلك الأهمية.

دور الموضع:

لقد تميز موضع اليمن هو الآخر بدرجة كبيرة من الأهمية التي لا تقل عن الأهمية التي تميز بها موقعه، فطبيعة تضاريسه المتعددة، وكذلك مناخه المتنوع، وفرت لسكانه ظروفًا ملائمة للحياة البشرية لم توفرها أي منطقة أخرى في شبة الجزيرة العربية، ولذلك لا غرابة عندما نجده قد مثل أهم جهاتها نشاطًا بشريًا وحضاريًا منذ فجر التاريخ[١]، وعندما نجد اليونانيين القدماء قد أطلقوا علية اسم العربية السعيدة أو Arabia Felix.

وبصورة عامة، فاليمن من الناحية الطبيعية يمتاز بسطح جغرافي شديد التنوع، ويمكن القول إنه يمثل نموذجًا للمظاهر التضاريسية العامة التي يمتاز بها سطح الأرض: سهول، وجبال، وقيعان وهضاب، وغيرها.

والمناطق السهلية في اليمن تنقسم بشكل عام إلى قسمين أساسيين: سهول ساحلية، تمتد بين المسطحات المائية من جهة، والمرتفعات الجبلية الداخلية من الجهة الأخرى، أهمها سهل تهامة غربًا الذي يتراوح عرضه بين ٤٠-٦٠كم[٢]، وسهل الساحل الجنوبي، الذي يمتد بشكلٍ موازٍ للبحر العربي، من باب المندب غربًا، إلى الحدود مع سلطنة عمان شرقًا، بمسافة طولها (١٢٠٠كم) تقريبًا، وهو أضيق من سهل تهامة، لاسيما في المواضع التي تقترب فيها المرتفعات من مياه البحر.

والسهول الأخرى هي السهول التي تقع خلف مناطق المرتفعات الداخلية، باتجاه صحراء الربع الخالي، لعل أهمها سهول شمال حضرموت، وكذلك سهول الجوف ومأرب، الممتدة بين حضرموت جنوبًا ونجران شمالًا[٣]. وعلى الرغم من أن جميع تلك السهول تسيطر عليها الطبيعة الصحراوية الجافة، إلا أنها تحتضن العديد من الوديان الخصبة التي تمر بها سيول مناطق المرتفعات الجبلية[٤]، والتي وفّرت لها ظروف ملائمة للرعي وللزراعة.

---

[١] سيد مصطفى سالم: الفتح العثماني، ص١٥.

[٢] عدنان ترسيسي: اليمن وحضارة العرب، بيروت، مكتبة الحياة، بدون تاريخ، ص١٢١.

[٣] نزار عبداللطيف الحديثي: أهل اليمن في صدر الإسلام، بغداد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٨م، ص٥٣.

[٤] محمد محمد سطيحة، المرجع السابق، ص ١٢.

وبحكم ارتفاع المعدل السنوي لسقوط الأمطار على المرتفعات الغربية مقارنة بالمرتفعات الشرقية، فقد منح ذلك أودية السهول الساحلية التي تتجه إليها سيول تلك المرتفعات، قدرًا أوفر من المياه والتربة الخصبة، بصورة لم يتوفر لها مثيل في مناطق اليمن الأخرى، لكن على الرغم من كل ذلك، فالظروف المناخية لذلك الساحل التي تميزت بشدة ارتفاع الحرارة والرطوبة، مع الصعوبات التي كانت تواجهها عملية الري؛ قد قللت من عوامل جذبه للمزيد من سكان اليمن.

ويمكن تقسيم مناطق مرتفعات اليمن الجبلية إلى قسمين أساسيين كذلك: المرتفعات الغربية والجنوبية، وهي عبارة عن سلسلة جبلية متصلة، محاذية للبحر الأحمر غربًا وخليج عدن جنوبًا[١]. والمرتفعات الشرقية، التي تمتد بصورة موازية للمرتفعات الغربية المحاذية لتهامة، فتبدأ إلى الشرق من صنعاء بحوالي ١٠كم، ويقل ارتفاعها كلما اتجهنا شرقًا باتجاه الربع الخالي[٢]، وعلى الرغم من أن تلك المرتفعات تعد أكثر انخفاضًا من المرتفعات الغربية إلا أنها تحتوي الكثير من الجبال الحادة التي تشكل حاجزًا طبيعيًا لمنع امتداد الصحراء باتجاه المناطق الداخلية.

وبوجه عام تتميز مناطق المرتفعات، لاسيما الغربية والجنوبية الغربية، بوفرة أمطارها الصيفية، وكذلك باعتدال مناخها[٣]، ومع أن وعورة السلاسل الجبلية التي تغطي سطح تلك المرتفعات، قد خلقت صعوبات أمام السكان في الحصول على المساحات المناسبة للزراعة، وكذلك في إقامة التجمعات السكانية الكبيرة عليها، إلا أنها على الرغم من كل ذلك، شكلت أهم أقاليم اليمن، وأكثرها نشاطًا وإنتاجًا.

والنطاق الجغرافي الآخر الذي يلي مناطق المرتفعات الجبلية هو: القيعان، أو ما يعرف باسم سهول المرتفعات، وعمومًا فمعظم تلك القيعان التي أهمها: صعده، وصنعاء، وذمار، ومعبر، ويريم، ورداع، تقع على الحد المائي الفاصل بين المرتفعات التي تتجه مياهها غربًا وجنوبًا والمرتفعات التي تتجه مياهها شرقًا. وعلى الرغم من استواء سطح تلك السهول وما تتميز به تربتها من خصوبة، إلا أنها محدودة المساحة، وفضلًا عن ذلك فقد جعلها ارتفاعها

---

[١] عدنان ترسيسي: المرجع السابق، ص١٢٦.

[٢] السيد مصطفى سالم: الفتح العثماني، ص١١.

[٣] أحمد حبيب رسول: دراسة في الجغرافيا الاقتصادية والبشرية لليمن "الشمال"، صنعاء، دار الحكمة، ١٩٨٥م، ص٩٦.

الشاهق عن سطح البحر، الذي يصل إلى ٣٦٠٠ متر[١]، أقل عرضة للمطر، وأكثر عرضة، لاسيما في الشتاء، للبرد والصقيع الذي يؤثر على معظم نباتها.

ولعل من بين أهم أقسام اليمن الطبيعية مجموعة هضاب حضرموت، التي تربض على مساحة كبيرة من شرق اليمن، والتي تنقسم بدورها إلى هضبتين كبيرتين: هضبة حضرموت الجنوبية، التي تمتد بين منخفض وادي حضرموت شمالًا والمرتفعات الساحلية جنوبًا. وهضبة حضرموت الشمالية، التي تقع شمال وادي حضرموت، وتمتد بشكل محدب من رملة السبعتين غربًا إلى جبل القارة في ظفار شرقًا.

ويمكن الإشارة إلى أنه على الرغم من اتساع تلك الهضاب واعتدال مناخها، إلا أن تدني نسبة الأمطار الساقطة على سطحها، وفقرها للتربة، جعلها لا تتمتع بظروف مناسبة للزراعة، ولذلك تركز النشاط الزراعي والسكاني في تلك الجهات، على مناطق الوديان التي تخللت تلك الهضاب، والتي تتوفر فيها المياه والتربة الخصبة بصورة أفضل.

ولا ريب في أن الظروف الطبيعية الخاصة باليمن، كان لها دورها الفاعل في مختلف أنشطة سكانه على مدار تاريخهم. فتنوع تلك الظروف واختلافها من منطقة إلى أخرى، جعل اليمن يزخر بذلك التنوع والتعدد الذي ميز حياته الاجتماعية والثقافية، ودفع سكان مناطقه المختلفة ليس إلى التمسك الشديد بالمكان فحسب بل وإلى الارتباط القوي بالجماعة، فالوحدات القبيلة الصغيرة، التي مثلت أهم رابط اجتماعي في حياة معظم سكان اليمن، استغلت تلك الكتل الجبلية وكذلك الجيوب المتناثرة خلفها، لفرض مستوطناتها الخاصة بها. كما لا شك في أن تلك الظروف الجبلية الوعرة قد مثلت العامل الحاسم في رسم حدود كل وحدة قبيلة، وشكلت تضاريسها الحادة في حالات كثيرة حواجز دفاعية مهمة لتلك القبائل. وكذلك تدخلت بشكل كبير في تحديد روابط كل قبيلة وعلاقتها بالقبائل المجاورة، وفرضت في الوقت نفسه على أفراد كل قبيلة قدرًا من الخصوصية التي ميزت نشاطهم وسلوكهم العام. فعلى عكس سكان المناطق الساحلية الذين كانوا بفعل ظروف مناطقهم السهلة، يقبلون التعامل مع الآخرين ويتعايشون معهم. اتصف فرد القبيلة في المناطق الجبلية الوعرة، بحسب رأي المؤرخ القدير د. سيد مصطفى سالم، بشدة حذره من كل ما هو أجنبي عن قبيلته، وبتعصبه الشديد لجماعته، والخضوع لزعيمه القبلي[٢].

---

[١] محمد محمد سطيحة: المرجع السابق، ص١٥.

[٢] سيد مصطفى سالم: الفتح العثماني، ص٣.

لقد كان من البديهي، في ظل تلك الظروف الطبيعية المتنوعة لليمن، ألا تفي بعض مناطقه، لاسيما شحيحة الأمطار، بالمتطلبات الأساسية لسكانها، وخصوصًا إذا ما أهملوا استغلالها بشكل اقتصادي فعال[١]. وكان من البديهي أيضًا أن يتم الدفع بالفائض السكاني لتلك المناطق التي كانت تشتد بها ظروف العيش، للانتقال إلى مناطق أخرى، إما بشكل هجرات وإما بشكل غزوات.

وتميزت المناطق اليمنية الفقيرة الإنتاج عن غيرها من المناطق الأخرى بقوة بنيتها القبلية، وكذلك بصعوبة إذعانها للحكومات المركزية، فما كانت تكاد أن تدخل أو تتحالف مع سلطة حتى تخرج عليها. وكان رجالها، في ظل تلك الظروف الصعبة، يحترفون القتال ليس من أجل الدفاع عن أنفسهم فحسب، بل وللحصول بقوة السلاح على متطلبات الحياة التي لا تجود بها مناطقهم. وعمومًا فقد كان من المألوف أن تتربص كل قبيلة بجيرانها من القبائل الأخرى حتى إذا سنحت لها الفرصة أغارت عليها إما لغرض النهب والسلب، أو لغرض التوسع في الأرض[٢].

ويمكن القول إن الظروف الطبيعية الوعرة، التي ميزت الكثير من مناطق اليمن قد أسهمت ليس في تبعثر السكان وتشتتهم في تجمعات سكانية متناثرة وضئيلة الكثافة فحسب، بل وفي تقليل فرص اختلاطهم وارتباطهم ببعضهم البعض[٣]. وبصفة عامة فقد انقسمت ملامح اليمنيين وسلوكهم بشكل واضح إلى: جبليين وسهليين، فسكان الجبال تميل بشرتهم إلى البياض ويمتازون بالنحافة والحركة والحيوية، والتعصب الشديد للقبيلة. أما سكان السهول فتميل ألوان بشرتهم إلى السمرة، وخصوصًا كلما قل ارتفاع الأرض عن مستوى سطح البحر. وبخلاف الجبلي فالسهلي بحسب رأي أحد المهتمين بالتاريخ اليمني، يميل إلى الراحة والسكون والسلام، ولديه الاستعداد بشكل أكبر للتعايش مع الآخرين[٤].

ولا شك في أن أوضاع اليمن الطبيعية والاجتماعية المتنوعة، قد مثلت ثروة كبيرة لسكانه، وللدول العديدة التي قامت فيه، فتنوع التضاريس والمناخ مثلًا، وفر إمكانية كبيرة لتنوع وتعدد المحاصيل الزراعية على مدار السنة، كما أن تنوع بيئته الاجتماعية أسهم بشكل أساسي في إثراء حياته الثقافية

---

[١] المرجع نفسه، ص١٧.

[٢] محمود السالمي: المرجع السابق ص١٢.

[٣] المرجع نفسه والصفحة نفسها.

[٤] محمد علي الأكوع: اليمن مهد الحضارة مكتبة الجيل الجديد، ط٢، ١٩٨٧م، ص٣٧؛ سيد مصطفى سالم: الفتح، ص١٤.

والاجتماعية. غير أن ذلك التنوع الطبيعي والاجتماعي، لم يكن على الدوام عاملًا إيجابيًا، فعلى خلاف العديد من البلدان الأخرى مثل مصر والعراق، التي ساعدت ظروفها الطبيعة السهلة، الدول التي ظهرت فيها على توسيع مساحتها سلطتها، وإطالة أمدها، فقد مثلت الطبيعة الوعرة في اليمن تحديًا كبيرًا أمام الدول التي ظهرت فيه، وخصوصًا تلك التي حاولت أن تبسط حكمها على أكبر قدر من مساحته.

وكانت تزداد حدة ذلك التحدي في تلك الأوقات التي كانت تعاني فيها حكومات تلك الدول من بعض الصعوبات أو الأزمات الداخلية، إذ أنها كانت توفر للزعامات المحلية في ظل تلك الظروف الطبيعة والقبلية الصعبة، القوة والمنعة، التي تغريهم على تكوين كياناتهم المستقلة، وذلك بمجرد أن يشعروا بضعف الحكومات المركزية[١]. والعلاقة بين المناطق الخصبة والفقيرة الإنتاج، ظاهرة تاريخية تشكل إحدى المفاتيح المهمة لفهم تاريخ اليمن، وقد زادت تعقيدًا حين اكتسبت، فضلًا عن ذلك الطابع الطبيعي، طابعًا عقائديًا مذهبيًا[٢]. وفي كل الأحوال فقد ظل اليمن بسبب ظروفه الطبيعية، مقسم في معظم عهوده التاريخية، بين عدد من الدويلات والإمارات المتنافسة والمتصارعة، وما أن تختفي دويلة من تلك الدويلات، حتى تظهر بدلًا عنها دويلة أو عدة دويلات أخرى، ونادرًا أن خضع بكامله لدولة وأحدة، حتى أيام دوله القوية.

فتبعثر السكان في الصحاري والجبال من ناحية، وتفتت الملكية الزراعية، خاصة في المناطق الجبلية، من ناحية أخرى[٣]، كانا من العوامل التي لم تشجع السكان أو حتى الدول على الاهتمام بفرض السلطة الحكومية على تلك المناطق. ففضلًا عن الإمكانات البشرية والمادية الكبيرة التي كانت تتطلبها عملية السيطرة المباشرة على تلك التجمعات السكانية الصغيرة والمتناثرة، والتي كانت تشكل أعباء على الدول المعنية، فقد كان سكان تلك المناطق، بحكم ظروف معيشتهم التي تعتمد في الأساس على مجهود الفرد أو على مجهود العشيرة على أكثر تقدير، لا يجدون في نظام الدولة الذي يحد من استقلاليتهم ويفرض الضرائب على عواتقهم، أفضلية عن نظام القبيلة الذي تعودوا عليه. ولا ريب في أن حالة التعصب القبلي الشديدة التي ميزت مجتمعات تلك المناطق الجبلية والصحراوية الوعرة، تسند بقوة مثل ذلك الفهم.

---

[١] متولي وأبو العلا: جغرافية الجزيرة، ج٣ (شمال اليمن) ص٤٢.

[٢] علي محمد زيد: معتزلة اليمن صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط١، ١٩٨١م، ص٤٩.

[٣] محمود السالمي: المرجع السابق، ص ١٣.

وللمزيد من التوضيح، نود أن نشير إلى أن درجة التعصب للجماعة، قد اختلفت من مكان إلى آخر، فعلى عكس المناطق الوعرة التي تشتد فيها درجات ذلك التعصب، فإنها تتراجع بشكل كبير في مناطق أخرى، لاسيما في المناطق الساحلية، فتوفر الوديان الكبيرة، واتساع أحجام الملكية الزراعية، وتنوع النسيج الاجتماعي في مدن تلك المناطق، دفع بسكانها للقبول بسلطة الدولة، والتفاعل معها بصورة أفضل. فلا شك في أن الدولة القوية تمثل حاجة لسكان تلك السواحل، فهي تستطيع أن تتولى العديد من المسئوليات الكبيرة التي لا تستطيع العشيرة أو القبيلة وحدها القيام بها، مثل إنشاء القنوات وتنظيم عمليات الري والدفاع عن التجمعات السكانية المكشوفة، وحماية النشاط التجاري في الموانئ، وغيرها. ولذلك كانت معظم الدول التي حكمت اليمن سواء محلية أو خارجية لا تعاني صعوبات شديدة في السيطرة على مناطقه الساحلية، أو حتى على مرتفعاته الوسطى. ولذلك لا غرابة عندما نجد سواحل اليمن قد شهدت نشاطًا واستقرارًا سياسيًا واقتصاديًا أكثر من غيرها من المناطق الداخلية، أسفر عن ظهور العديد من التجمعات والمدن المهمة، مثل: زبيد، والمخا، وجيزان، والشحر، وعدن، والتي شكلت عواصم ومراكز للعديد من الدول والكيانات السياسية التي عرفها اليمن، لاسيما في عهده الإسلامي.

وعمومًا فمسلسل ظهور الدويلات المحلية، لم يقتصر على مناطق السهول الخصبة فحسب، بل وعلى مناطق المرتفعات الجبلية، ومنها المرتفعات الشمالية، التي احتمى فيها مذهبان شيعيان بعيدًا عن مركز الخلافة الإسلامية، هما: المذهب "الزيدي" الذي ظهر في صعدة في سنة ٢٨٤هـ / ٨٩٧م، [١]، والذي شكل أساس دولة الأئمة في اليمن، والمذهب "الإسماعيلي" الذي ظهر في جبال لاعه وحراز، في سنة ٢٩٣هـ/٩٠٦م والذي شكل نواة الدولة الصليحية، التي ارتبطت سياسيًا ومذهبيًا بدولة الفاطميين في مصر[٢].

والجدير بالذكر أن الكثير من تلك الدول التي شهدها اليمن في ذلك العهد مثل: (الصليحية، والرسولية، والطاهرية، والزيدية) قد قامت في عهود قوتها بمحاولات حثيثة لبسط سلطتها على أكبر قد من مساحة اليمن، غير أن تلك المحاولات كانت في الأساس تتركز على الجهات والمناطق الخصبة والسهلية، كما أنها وإن نجحت في بعض الوقت في بسط سلطتها على مساحات

---

[١] أيمن فواد سيد (د): تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٨٨م، ص ٢٢٧.

[٢] سيد مصطفى سالم: الفتح العثماني الأول، ص٢٠.

كبيرة من اليمن، إلاّ أنها كانت لا تستطيع أن تحتفظ بسلطتها عليها طويلًا، ويمكن القول إنه قد عاصرت ظاهرةَ قيام الدول المحلية المستقلة في اليمن، لاسيما في عهده الإسلامي، ظاهرةٌ أخرى، وهي انقسامه إلى عدد من الدويلات والإقطاعيات[1]، التي كانت تزداد عددًا كلما زادت الدول الكبيرة التي ظهرت في زبيد، وصنعاء، وتعز، وعدن، وحضرموت، ضعفًا. فتعرض أي من تلك الدول لأي شكل من أشكال المتاعب، أو الأزمات الداخلية، كان يقود، في ظل ظروف اليمن الطبيعية والاجتماعية المعقدة، إلى تفتيت تلك الدول الكبيرة إلى وحدات سياسية عديدة.

ومن باب التأكيد فقد تسبب ضعف الدولة القاسمية التي نجحت إلى حدود بعيدة، في بسط سيطرتها على معظم جهات اليمن، في منتصف القرن السابع عشر الميلادي، في تفتيت اليمن إلى عدد كبير من الكيانات القبلية والسياسية المستقلة، وخصوصًا جنوب اليمن الذي ظل منذ ذلك الحين وحتى الاحتلال البريطاني لعدن، يحتكم لعدد غير محدود من السلطنات والمشيخات المحلية المستقلة[2].

ولا نستطيع أن نتجاهل تأثير الحالة السياسية التي كانت تنتجها أوضاع اليمن الداخلية المختلفة، على علاقته بالخارج، في ظل أهمية موقعه. فعلى عكس الحالات التي كان يشهد فيها اليمن ظهور الدول الداخلية القوية، كانت حالة التفكك والفوضى في أوضاعه الداخلية، تدفع بالدول الخارجية التي كانت تطمع في السيطرة على موقعه، إلى استغلال تلك الحالة، لتحقيق مطامعها. وللتدليل على ذلك، فقد وجدت الإمبراطورية البريطانية في حالة التمزق والتناحر الداخلي التي كانت تعيشها مناطق اليمن فرصة في السيطرة على ميناء عدن في ١٨٣٩م، ومن ثم فرض حمايتها على كل مناطق الجنوب. وكذلك وجدت السلطنة العثمانية في تلك الظروف أيضًا ما ساعدها على إعادة فرض سيادتها على شماله في سنة ١٨٧٢م.

وفي جميع الأحوال، ينبغي التأكيد على أن ظروف اليمن الطبيعية والاجتماعية المعقدة، التي كانت تعيق محاولات دوله المحلية عن تحقيق السيطرة الحاسمة على أوضاعه، فقد كانت تعيق بشكل أكبر محاولات الدول المحتلة عن فرض مثل تلك السيطرة، والأكثر من ذلك فقد كانت تلك الظروف الخاصة باليمن، توفر البيئة المناسبة لظهور واستمرار حركات المقاومة

---

[1] **المرجع نفسه والصفحة نفسها.**

[2] **محمود السالمي: المرجع السابق، ص ١٤٦.**

والثورات القبلية التي كانت تواجه حكم الاحتلال الأجنبي، وتدفعه غالبًا إلى مغادرة اليمن، ولذلك وصفت اليمن بمقبرة الغزاة.

الخاتمة:

وهكذا فقد كان لموقع اليمن الاستراتيجي المهم، وكذلك لإمكاناته الطبيعية الداخلية المميزة (موضعه) تأثيرهما الكبير على مساره التاريخي، وعلى شخصيته الحضارية وبنيته الاجتماعية، وظل كل منهما يكمل دور الآخر. فبالإضافة إلى أهمية موقع اليمن في الطريق التجاري العالمي، وكذلك في التفاعل مع الحضارات الإقليمية والدولية، فقد كانت ثروته الداخلية التي وفرها الموضع هي الدعامة التي جعلته يستفيد حضاريًا من هذا الموقع، ومكنته من أن يصبح موطنًا مبكرًا للحضارة الإنسانية، وليس مجرد طريق للتجارة الدولية. وفي كل الأحوال فقد ظلت تلك الإمكانات التي أتاحهما الموقع والموضع، مرتبطة إلى حد كبير بمدى قدرة كيانات اليمن الداخلية على التفاعل معها، ففي حين كانت في عهود الدول القوية، التي أحسنت استغلالها وأجادت الدفاع عنها، مصدر نعمة وثراء، فقد كانت في عهود الضعف والفوضى، مصدر معاناة وشقاء، وخصوصًا في تلك الأوقات التي مكنت الطامعين الأجانب من استباحة أراضيه.

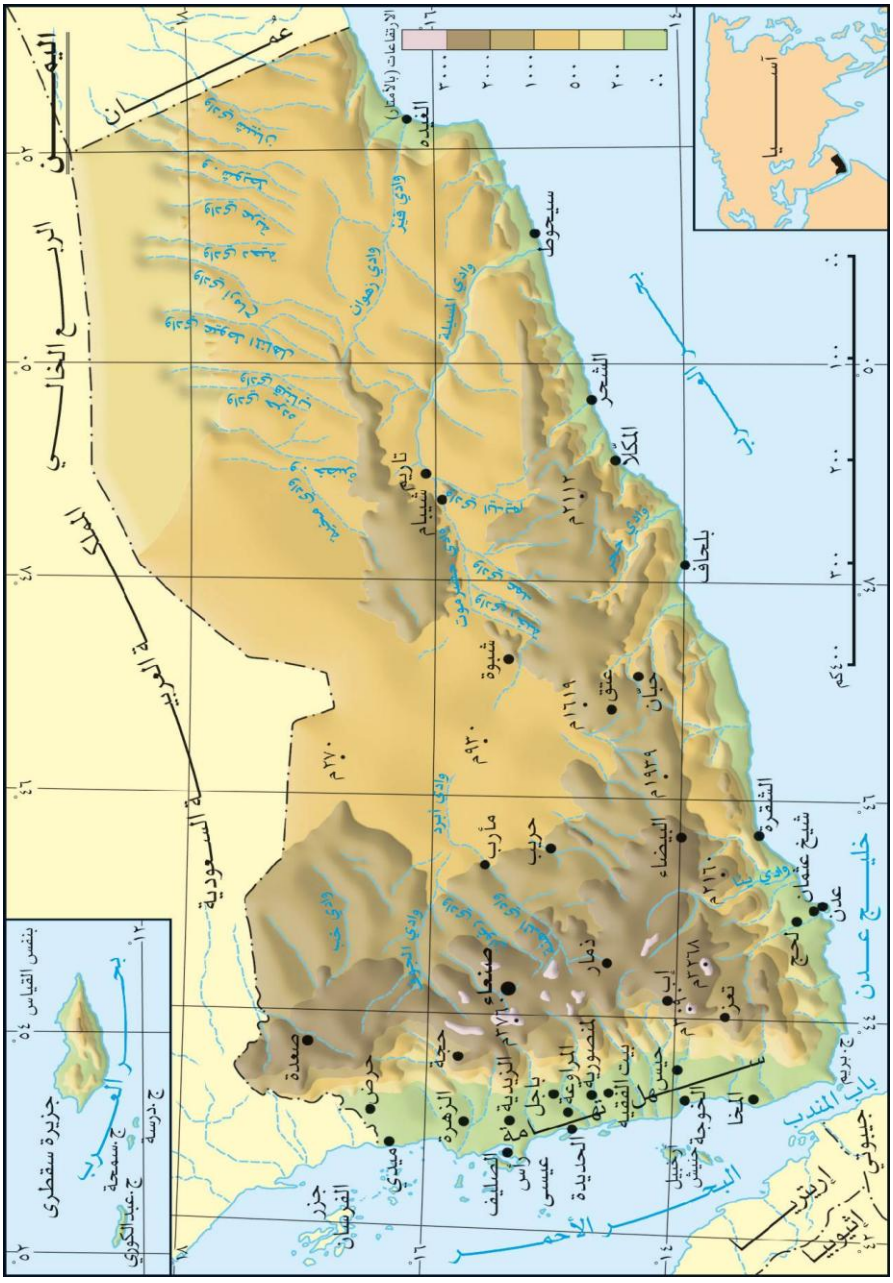

خريط توضح موقع اليمن وتنوع تضاريسه الداخلية.

المراجع

أولا العربية:

- **أحمد حبيب رسول**: دراسة في الجغرافيا الاقتصادية والبشرية لليمن "الشمال"، صنعاء، دار الحكمة، ١٩٨٥م.
- **أحمد شرف الدين**: اليمن عبر التاريخ، مصر، المطبعة المحمدية، ط٢، ١٩٦٤م.
- **أحمد فخري** (د): اليمن ماضيها وحاضرها، المكتبة اليمنية للنشر والتوزيع، ط٢، ١٩٨٨م.
- **أريك ماكرو**: اليمن والغرب، ترجمة د. حسين العمري، دمشق، دار الفكر، ط٢، ١٩٨٧م.
- **أيمن فؤاد سيد** (د): تاريخ المذاهب الدينية في بلاد اليمن، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط١، ١٩٨٨.
- **أيوب صبري باشا**: مرآة جزيرة العرب، ترجمة وتعليق د. أحمد فواد متولي و د. الصفصاني أحمد المرسي، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط١، ١٩٩٩م.
- **تاج الدين عبد الباقي بن عبد المجيد اليماني**: بهجة الزمن في تاريخ اليمن، تحقيق مصطفى حجازي، دار الكلمة، صنعاء، ط٢، ١٩٨٥م.
- **جاد طه** (د): سياسة بريطانيا في جنوب الجزيرة العربية، دار الفكر العربي، القاهرة، ط٣، بدون تاريخ.
- **جمال محمود حجر (د):** القوى الكبرى والشرق الأوسط، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ط١، ١٩٨٩م.
- **جون بولدري**: العمليات البحرية البريطانية ضد اليمن إبان الحكم التركي ١٩١٤- ١٩١٩م، ترجمة د. سيد مصطفى سالم، المطبعة الفنية، القاهرة، ١٩٨٢.
- **حسين العرشي**: بلوغ المرام في شرح مسك الختام، دار إحياء التراث العربي، بدون تاريخ.
- **حسين بن فيض الله الهمداني**: الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن، منشورات المدينة، صنعاء، الطبعة الثالثة، ١٩٨٦م.

- **ديفيد ليدجر:** الرمال المتحركة (البريطانيون في الجنوب العربي) ترجمة: د. منال حلبوب، صنعاء، الطبعة الأولى، ٢٠١٢م.
- **سلطان ناجي**: التاريخ العسكري لليمن، دار العودة، بيروت، ط٢، ١٩٨٨م.
- **سيد مصطفى سالم (د)** البحر الأحمر والجزر اليمنية، دار الميثاق، صنعاء، ط١، ٢٠٠٦م.
- **سيد مصطفى سالم** (د): الفتح العثماني الأول لليمن، القاهرة، معهد الدراسات والبحوث العربية، ط٣، ١٩٨٤م.
- **عبد العزيز سالم (د):** البحر الأحمر في التاريخ الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٩٣م.
- **عدنان ترسيسي**: اليمن وحضارة العرب، بيروت، مكتبة الحياة، بدون تاريخ.
- **علي محمد زيد**: معتزلة اليمن، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط١، ١٩٨١م.
- **فاروق عثمان أباظة** (د): عدن والسياسة البريطانية في البحر الأحمر (١٨٣٩-١٩١٨) الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦م.
- **فالكوفا:** السياسية الاستعمارية في جنوب اليمن، ترجمة عمر الجاوي، مطابع مؤسسة ١٤ أكتوبر، عدن، ١٩٧٨م.
- **فيتالي ناؤومكين**: الجبهة القومية في الكفاح من أجل استقلال اليمن الجنوبية، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٤.
- **قصى كامل شبيب**: أهمية مضيق باب المندب في التاريخ الحديث والمعاصر، صنعاء مركز الدراسات والبحوث اليمني، ط١، ١٩٩٤م.
- **كلاوس شيبمان**: تاريخ الممالك القديمة في جنوب الجزيرة العربية، ترجمة د. فاروق إسماعيل، مركز البحوث والدراسات اليمنية، صنعاء، ٢٠٠٢م.
- **لوتسكي**: تاريخ الأقطار العربية الحديث، ترجمة د. عفيفة البستاني، دار التقدم، موسكو، بدون تاريخ.
- **مجموعة من المؤلفين الروس**: تاريخ الأقطار العربية الجزء الأول، دار التقدم، موسكو، ١٩٧٥.
- **محمد عبد القادر بافقيه (د)**: تاريخ اليمن القديم، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٥.

- **محمد علي الأكوع**: اليمن مهد الحضارة، صنعاء، مكتبة الجيل الجديد، ط٢، ١٩٨٧م.
- **محمد محمد سطحيه** (د): اليمن شماله وجنوبه، معهد الدراسات الإسلامية، القاهرة، ١٩٧٢م.
- **محمود أبو العلا متولي**: جغرافية شبه الجزيرة، ج٤ (جنوب اليمن)، القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ط٢، ١٩٨٩م.
- **محمود أبو العلاء متولي**: جغرافية شبه الجزيرة العربية، ج٣ (الخاص بشمال اليمن) القاهرة، مكتبة الأنجلو مصرية، ط٣، بدون تاريخ.
- **محمود علي محسن السالمي**: محاولة توحيد اليمن بعد خروج العثمانيين الأول، المركز العربي للدراسات الاستراتيجية، دمشق، ط١، ٢٠٠٠م.
- **نزار عبد اللطيف الحديثي**: أهل اليمن في صدر الإسلام، بغداد، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٧٨م.
- **هارولد أنجرامس**: اليمن، الأئمة والحكام والثورات، ترجمة: نجيب سعيد باوزير، مراجعة: عبد الكريم الحنكي، مركز البحوث جامعة عدن، ط١ ، ٢٠٠٧م.
- **اليمن في العهد العثماني**، مجموعة وثائق تركية عن اليمن، أعدها وصنفها وترجمها إلى العربية فريق برئاسة د. يوسف صاريناي، إسطنبول، ٢٠٠٦م.

ثانياً: الأجنبية:

- Donald Foster: Lands Cape with Arabs, Travels in Aden and South Arabia, Clifton Books, First Published, London, 1960.
- R. W. Canning Large: Ph.D. thesis "The Extension of British Influence In and around the Gulf of Aden 186S-190S", University of London, 1974.
- R. Yaccob: Ph.D. thesis " Anglo-Ottoman rivalries in Southwest Arabia prior to and during the first world war: 1906-1919 " University of London, 1995.
- R.J. Gavin : Aden under British rule, 1939 - 1967,London, 1975.

- Sir Pernard Reilly: Aden and the Yemen, Colonial office, London, 1960.
- Z. H. Kour: The history of Aden, 1839-72, London, 1981.